الفصل الخامس

الفكر واللغة

مقدمة

أولاً: البعد التاريخي لعلاقة الفكر واللغة

ثانياً: البيان بين الفكر اللغة

ثالثاً: نظريات العلاقة بين الفكر اللغة

رابعاً: الفكر والترقي في المهارات اللغوية

خامساً: العبث الفكري واللغوي

سادساً: الكلام وحديث النفس

سابعاً: الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية وأثرهما في الفكر والثقافة والهوية

خاتمة

obeikan.com

obeikan.com

الفكر واللغة

مقدمة:

إنَّ كاتب هذه السطور يكتبها بعد أن **فكَّر** في أهمية تضمين بحثه شيئاً عن العلاقة بين التفكير واللغة، و**فكَّر** في أن يكون حجم المادة المكتوبة لا يزيد عن عُشر حجم البحث كلِّه، و**فكَّر** في أنَّ أدبيات علم النفس مصدر أساسي في الحديث عن هذه العلاقة... إلخ. وعندما كتب عناصر هذه المادة **فكَّر** في جعلها متسلسلة: تبدأ بمقدمة مناسبة، وتنتقل إلى جسم المادة الأساسي الذي يتكون من عدد من العناوين الفرعية، وتنتهي بخاتمة مناسبة. وربَّما **تذكّر** موضوعاً **استمع** إليه من أحدى الإذاعات وهو في سيارته، وربَّما **قرأ** مرجعاً من مكتبته في الموضوع، وربَّما **تحدّث** مع أحد زملائه عن أهمية الموضوع، وربَّما **تصفّح** بعض المواقع الإلكترونية ليقرأ بعض ما قد تحتويه عن العلاقة بين التفكير واللغة، وها هو الآن **يكتب** ما استطاع جمعَه وتنظيمَه من أفكار في الموضوع.

إنَّ الاستماع، والكلام، والقراءة، والكتابة، هي مهارات اللغة الأربع، فهل يمكننا أن نتخيل كاتباً كتب شيئاً عن الفكر، دون أن يفكر فيه؛ أي دون أن يمرَّ تفكيرُه في واحدة أو أكثر من مهارات اللغة المشار إليها؟

ويرتب اللغويون هذه المهارات الأربع بالترتيب المشار إليه من حيث بناءُ هذه المهارات وتطوُّرها عند الإنسان، في بنائه لجهازه اللغوي، والفكري. ولا خلاف على أن الاستماع والقراءة وسيلتان لتطوير البنية الفكرية عند الإنسان، لكننا لا نعرف عن وجود هذه البنية إلا عندما يتحدث الإنسان أو عندما يكتب. ولكن السمع كما يقول ابن خلدون: "أبو الملكات اللسانية"[1]. ولذلك فقد تقدم

(١) ابن خلدون. **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٣، ص ١١٢٩.

ذكر السمع على البصر في القرآن الكريم في معظم الآيات التي تجمع بينهما.

ومع الاتفاق على أنَّ اللغة هي القالب الذي ينصبّ فيه الفكر، والفكر هو المضمون الذي يحتويه ذلك القالب اللغوي، وأنّ المضمون يأخذ شكل القالب ويتحدد بحدوده؛ في وضوحه وجودته، أو غموضه ورداءته، مع ذلك فإنَّ مما لا شك فيه أن علاقة اللغة بالفكر علاقة تبادلية وتكاملية؛ تبادلية من حيث إنَّ أحدهما يؤثر في الآخر، وتكاملية من حيث إنَّ أحدهما يحتاج إلى الآخر، فمقدار غِنَى أحدهما يكون إغناء الآخر، وكل منهما يسهم في إغناء الآخر. فاللغة تخدم الفكر حين تعين الإنسان على التعبير عن فكره وإخراجه إلى حيز الوجود اللغوي، فتصبح الفكرة موضوعاً للتواصل. وفي الوقت نفسه يخدم الفكر اللغة حين يعينها على اختيار اللفظ الأكثر دقة وتعبيراً على المعنى، ويغني اللغة بالمعاني والدلالات التي تحتاج إلى ألفاظ ومصطلحات جديدة، فالفكر يصنع اللغة، ويصنع نفسه بها.

وقد قلنا من قبل إنَّ الفكرَ فِعْلٌ وإنَّ البناءَ فِعل، والآن نقول: إنّ اللغةَ فِعْل، والفاعل فيها هو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاح أبنائها. وقد عبر ابن خلدون عن هذه الحقيقة بقوله: "اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة هي فِعْلٌ لسانيٌّ ناشئة عن القصد لإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملَكَةً متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحهم."[1]

وسوف نتناول في هذا الفصل نبذ موجزة من تاريخ الاهتمام بالعلاقة بين الفكر واللغة، ونظريات العلاقة بينهما، والعلاقة التبادلية والتكاملية بينهما، وموضوع البيان، وموضوع الفكر والكلام النفسي، وأخيراً الازدواجية والثنائية اللغوية وأثرها في الفكر والثقافة والهوية. ولا نهدف من ذلك إلى استقصاء العلاقة في هذه الموضوعات من جوانبها المتعددة، وإنَّما

(١) المرجع السابق، ص ١١٢٨.

الهدف من ذلك هو التأكيد على أنَّ البناء الفكري يرتبط بالنمو اللغوي والملكة اللغوية ارتباطاً وثيقاً، وأن هذا الارتباط كان موضوعاً للبحث والنظر منذ عصور قديمة ولا يزال كذلك، وأن الموضوع يرتبط بثقافة كل مجتمع وهويته المميّزة له..

أولاً: البعد التاريخي لعلاقة الفكر واللغة

يبدو أن الاهتمام بعلاقة الفكر واللغة يعود إلى عهود سحيقة من تاريخ البشرية، فإذا أخذنا بالمصادر الدينية، يكفينا أن نتفكر فيما ورد في القرآن الكريم، الذي يشير إلى هذه العلاقة بصورة مباشرة في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. وإذا كان الله سبحانه قد ذكر حقيقة خلق الإنسان، وأتبعه مباشرة بحقيقة تعليمه البيان، في آيتين متتاليتين: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١ - ٤] فإنّه سبحانه قد ربط اللسانَ بالبيان في آية واحدة، هي قوله جلّ جلاله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

أما في المدونات البشرية للتاريخ، فإنّ ثَمَّة نصوصاً مهمة ترجع إلى عهد سقراط وأرسطو، ومن جاء بعدهما من فلاسفة اليونان والرومان. ولا يعنينا في هذا المقام الدخول في تفاصيل ذلك، والمراجع في هذا الشأن متوفرة لمن يريدها. وقد تضمنت المحاورات والمجادلات التي جرت بين فلاسفة الإغريق قضايا بقيت عالقة في تاريخ العلوم عبر الأزمان المختلفة، ولا تزال موضوعاتٍ للمناقشة والجدل حتى هذا الوقت. مثل الأسئلة التقليدية الثلاثة: أصل اللغة وانتظام اللغة، وبنية اللغة. وحتى اللفظ (logos) الذي اشتهر في تاريخ الفكر الغربي، فإنه استخدم ليدل في الوقت نفسه على اللغة والعقل والفكر.[1]

(1) Haris, Roy and Taylor, Talbot. *Landmarks In Linguistic Thought Volume I: The Western Tradition From Socrates To Saussure (History of Linguistic Thought)*, Vol. 1, Routledge; 2 edition, 1997, pp. 21–28

والكتاب يأخذ نصوصاً من أعمال الفلاسفة السابقين ويناقشها بقدر من التفصيل، من حيث بيان =

إنَّ الجدل بين نظريات الفكر اللغوي له تاريخ طويل، شهدنا بعض أمثلته عند فلاسفة اليونان، وشهدنا نماذج منه في حلقات السجال بين نحاة البصرة والكوفة. ونشهد الآن سجالاً بين اللسانيين العرب المحدثين، الذي انصرف جلُّ همِّ كثيرٍ منهم إلى تطبيق المناهج الغربية الحديثة على الفكر اللغوي العربي،[1] كما نشهد سجالاً حاداً بين علماء اللسانيات الغربيين الذين ينتمون إلى مدارس فلسفية ونفسية مختلفة، نكتفي بالتمثيل عليها في هذا المقام بالمناظرة المفصلية بين بياجيه وتشومسكي عام ١٩٧٥.[2]

وفي التراث الإسلامي فيض من النصوص التي تتحدث عن أصل اللغة البشرية وعلاقتها بأشكال التفكير والفهم والإدراك، والتفاصيل الدقيقة في بنية اللغة العربية وتطور علومها، ودروها في حمل مضامين القرآن الكريم. فثمة إشارات إلى جهود مبكرة تنسب إلى أبي الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ)، الذي ذكرت الروايات أنه صاحب المحاولة الأولى لوضع النحو العربي، وأنه نقَّط المصحف الشريف، وإشارات أخرى إلى أبي عبد الله بن أبي أسحق الحضرمي (ت١١٧هـ)، وعيسى بن عمر (ت ١٤٩هـ)، وإن كانت كتب هؤلاء الثلاثة لم تصل إلينا. ومن ذلك أعمال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) وتلميذه سيبويه (ت١٨٠هـ).

وثمة من يرى أن الجهود التي بذلت بعد ذلك بقيت في إطار المنهج الذي

= دور اللغة في الفكر الإنساني والمجتمع. ويبدأ بطبيعة الحال بمناظرات سقراط التي دونها تلميذه أفلاطون، ثم ينتقل إلى أعمال أرسطو، ويشير إلى الكتاب المقدس Bible، ثم يأخذ في عرض جهود أعلام الفكر اللغوي في القرون الوسطى حتى التاسع عشر، ويواصل في الجزء الثاني من الكتاب مناقشة الجهود التي تمت في القرن العشرين.

(١) موسى، نهاد. المغمور في دائرة النور، تصدير كتاب **التفكير اللساني عند علماء العقليات المسلمين**. تأليف: عماد أحمد الزبن، عمان: دار النور المبين، ٢٠١٤م، ص ٧-١٤.

(٢) غاردنر، هاوارد. "طبيعة الفكر واللغة، مواجهة بين شومسكي وبياجيه"، ترجمة: أحمد أوزي، **مجلة علوم التربية** (مجلة فصلية محكمة تصدر في المملكة المغربية)، عدد ١٤، فبراير ١٩٩٨، ص١٠٣-١٠٩ والمادة هي تقرير غاردنر عن تلك المناظرة.

وضعه سيبويه.[1] وسوف نثبت فيما يلي أمثلة على نصوص تعبر عن جهود عدد من العلماء في التراث العربي الإسلامي في مجال العلاقة بين اللغة والفكر، مما نرى أنه يصلح للاستئناس به.

يقول أبو الفتح ابن جنِّي في مسألة أصل اللغة البشرية: "هذا موضوع محوج إلى فضل تأمل؛ غير أنَّ أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي (وتوقيف). إلا أنَّ أبا علي رحمه الله قال لي يوماً: هي من عند الله، احتج بقوله سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾، وهذا لا يتناول موضع الخلاف. وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم عن أن تواضع عليها؛ وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة. فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به. وقد كان أبو عليّ رحمه الله أيضاً قال به في بعض كلامه، وهذا أيضاً رأي أبي الحسن، على أنه لم يمنع قول من قال: إنها تواضع منه."[2] ويقول: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل."[3]

ثم يقول: "واعلم فيما بعد أنَّني على تقادم الوقت، دائمُ التنقير والبحث عن هذا الموضوع، فأجد الدواعي والخوالج قويةَ التجاذب لي، مختلفةَ جهاتِ التغوُّل على فكري، وذلك أنَّني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدتُ فيها من الحكمة والدِّقَّة والإرهاف والرقَّة، ما يملك عليّ جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غَلْوة السِّحر. فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا رحمهم الله، ومنه ما حذوته على أمثلتهم، فعرفت بتتابعه وانقياده وبُعد مراميه

(١) عمايرة، خليل أحمد. **في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق**، جدة: عالم المعرفة، ١٩٨٤، ص١٤-١٥.

(٢) ابن جِنِّي، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ). **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة: المكتبة العلمية ١٩٥٢، ج١، ص ٤٠.

(٣) المرجع السابق ج١، ص٤٦.

وآماده، صدق ما وفِّقوا لتقديمه منه ولطف ما أُسعدوا به، وفُرِق لهم عنه، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله جلّ وعزّ، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه وأنها وحي. ثم أقول في ضدِّ هذا: كما وقع لأصحابنا ولنا، وتنبهوا وتنبهنا، على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا –وإن بعد مداه عنا– من كان ألطف منا أذهاناً، وأسرع خواطر وأجرأ جَنَاناً. فأقف بين تين الخّلَّتين حسيراً، وأكاثرهما فأنكفئ مكثوراً، وإن خطر خاطر فيما بعد، يعلّق الكف بإحدى الجهتين، ويكفها عن صاحبتها، قلنا به، وبالله التوفيق."[1]

وهكذا لا يحسم ابن جنِّي مسألة كون اللغة وحياً وتوقيفاً من الله عز وجل، أو أنها اصطلاح واكتساب وتواضع بشري. وربما كان ذلك منه موقفاً وسطاً أراد به احترام رأي أستاذه أبي علي الفارسي المعتزلي وغيره من المعتزلة الذين يقولون: إن اللغة نشأت بالمواضعة والاصطلاح. ويبدو أن مسألة التردد هذه بين هاتين النظريتين لنشأة اللغة، قد لازمت الدارسات اللغوية واللسانية عبر التاريخ. لكن معظم الدراسات اللسانية المعاصرة تميل إلى القول بوجود قدرة فطرية تولد مع الإنسان، وتمكنه من اكتساب اللغة ضمن الظروف الموضوعية لحياته، فاللغة خاصية مشتركة في النوع البشري، وصفة مميزة له عن سائر المخلوقات. ونظراً لاختلاف هذه الظروف في المجتمعات البشرية، فإن من الطبيعي أن تتعدد اللغات وأن تتغير.

ومسألة العلاقة بين اللغة والفكر مبسوطة في كتب اللغويين العرب، بصورة واضحة، وفيها يقول ابن جنِّي: "فإذا رأيتَ العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترَيَنَّ أن العناية إذ ذلك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها... كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجِّنه ويغُضُّ

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٤٧.

منه كُدْرة لفظه وسوء العبارة عنه."[1] ويقول: "وذلك أن أكثر من ضلّ من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، فإنما استهواه واستخف حلمه، ضعفُه في هذه اللغة الكريمة الشريفة..."[2]

وينقل الجاحظ عن بشر بن المعتمر أنه كتب في "صحيفة من تحبيره وتنميقه أن: "من أراد معنىً كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً؛ فإنَّ حقَّ المعنى الشريف اللفظُ الشريف... والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال... وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات..."[3]

أما الجرجاني فإنه يقول: "ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذُكر، أنّه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفراداً ومجردة من معاني النحو، فلا يقوم في وهم ولا يصح في عقل أن يتفكر متفكر في معنى "فِعْل" من غير أن يريد إعمالَه في "اسم" ولا أن يتفكر في معنى "اسم" من غير أن يريد إعمالَ "فعل" فيه، وجعله فاعلاً له أو مفعولاً، أو يريد فيه حكماً سوى ذلك من الأحكام، مثل أن يريد جعله مبتدأ أو خبراً أو صفة أو حالاً أو ما شاكل ذلك."[4]

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢١٧.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص٢٤٥.

(٣) المرجع السابق، نص الرسالة كاملة ص١٣٥-١٣٩.

(٤) الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر (٤٧٤هـ). **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٤م، ص ٤١٠

واللغات عند ابن خلدون ملكات صناعية؛ أي يجرى بناؤها وتعلُّمها بالاكتساب،[1] والملكات تتحقق للإنسان بتكرار قيامه بالفعل حتى تصبح الملكة صفةً راسخة، يقول: "اعلم أنَّ اللغات كلَّها ملكات شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأنَّ الفعل يقع أولاً، وتعود منه للذات صفة، ثم تكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنَّها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة؛ أي صفة راسخة."[2]

ويبدو أن هذه الملكة هي التي تكسب المتكلم باللغة والمستمع إليها، قدرة يميز بها الصواب والخطأ، اعتماداً على ما جرى عليه معهود الجماعة اللغوية، دون حاجة إلى القواعد. يقول ابن خلدون في ذلك: "يتعيّن النظرُ في دلالة الألفاظ وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة. والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان. وحين كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علوما ولا قوانين، ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها؛ لأنها جِبِلَّة وملَكَة، فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيَّدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة، وصارت علوما يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى. ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام، وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق، بل لا بد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصَّل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك، وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة... فكانت

(١) وبذلك يفنّد ابن خلدون الرأي القائل بالسليقة والوراثة، ودور الجنس والعِرْق في تحديد طبيعة اللغة أو إتقانها.

(٢) ابن خلدون. **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ص ١١٤٠.

كلها من قواعد هذا الفن، ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية."[1]

وفي بيان العلاقة الوجودية بين الفكر، والعلم، واللغة، نستذكر جهود كثير من علماء المسلمين في التمييز بين الوجود العيني، والوجود الذهني، والوجود اللساني، ونختار من هذه الجهود قول أبي حامد الغزالي: "فنقول في بيان حدِّ الاسم وحقيقتِه: إنَّ للأشياء وجوداً في الأعيان، ووجوداً في الأذهان، ووجوداً في اللسان؛ أما الوجود في الأعيان فهو الوجود الأصلي الحقيقي، والوجود في الأذهان هو الوجود العلمي الصوري، والوجود في اللسان هو الوجود اللفظي الدليلي. فإنَّ السماء مثلاً لها وجود في عينها ونفسها، ثم لها وجود في أذهاننا ونفوسنا؛ لأن صورة السماء تنطبع في أبصارنا ثم في خيالنا، حتى لو عدمت السماء -مثلاً- وبقينا، لكانت صورة السماء حاضرة في خيالنا. وهذه الصورة هي التي يعبر عنها بالعلم، وهو مثال المعلوم، فإنه محاك للمعلوم ومواز له ... وأما الوجود في اللسان فهو اللفظ المركب من أصوات قطعت أربع تقطيعات يعبر عن القطعة الأولى بالسين وعن الثانية بالميم وعن الثالثة بالألف وعن الرابعة بالهمزة وهو قولنا: سماء؛ فالقول دليل على ما هو في الذهن، وما في الذهن صورة لما في الوجود مطابقة له، ولو لم يكن وجود في الأعيان لم ينطبع صورة في الأذهان، ولو لم ينطبع في صورة الأذهان لم يشعر بها إنسان، ولو لم يشعر بها الإنسان لم يعبر عنها باللسان، فإذاً اللفظ والعلم والمعلوم ثلاثة أمور متباينة، لكنها متطابقة متوازية، وربما تلتبس على البليد فلا يميز البعض منها عن البعض."[2]

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن اللغة العربية لا ترتبط بالفكر والعقل فحسب، وإنما ترتبط بالدين والخلق كذلك: يقول: "اعلم أنَّ اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيّناً ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة

(١) المرجع السابق، ج٣، ص ١٠٦٣.

(٢) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **المقصد الأسمى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، قبرص: الجفان والجابي، ١٩٨٧، ص ٢٥.

من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق، وأيضاً فإنَّ نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب؛ فإنَّ فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب."[1] ويقول في موقع آخر: "فإنّ اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميّزون.[2]

ثانياً: البيان بين الفكر اللغة

البيان لفظ أثير في القرآن الكريم، ورد مع مشتقات "بان" في نحو مائتين وسبعة وخمسين موقعاً (٢٥٧) بصيغ اسمية وفعلية عديدة، فالقرآن الكريم بَيَانٌ: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وهو تِبْيَان: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، وهو كتاب مبين: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]، وقد أُنزل هذا القرآن: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء: ١٩٥]، وآياته بينات: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الحج: ١٦] والرسول الذي أُنزل إليه الكتاب هو نفسه نذير مبين: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، بل إنَّ كلَّ رسول أرسله الله جاء بلسان قومه ليبين لهم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]... وهكذا.

والتفكر في الدلالات التي وردت فيها مواقع البيان في القرآن الكريم نزهة ممتعة حقاً، فما جاء من عند الله ليس طلاسم وأساطير مجهولة المعاني والدلالات، بل هي آيات "بيّنات" واضحة ظاهرة مفهومة، جاءت باللسان الذي يفهم أصحابُه معانيه، ومع ذلك فقد جاءت في مستويات من الفصاحة بلغت حدَّ الإعجاز. والنص القرآني أبلغ تأثيراً في السامع أو القارئ من أي بيان، يحاول توضيح دلالة هذا النص بغير لغته الأصلية.

---

(١) ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم. **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق: ناصر بن عبد الكريم العقل، الرياض: مكتبة الرشيد، (د. ت.)، ج ١، ص ٤٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦٢.

وكان الإمام الشافعي من أوائل من أسهب في الحديث عن البيان القرآني، وذلك في كتابه الأصولي الفذّ "الرسالة"، فبدأه بقوله: "والبيان اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع."[1] ثم فصل البيان للأحكام في القرآن في خمس مراتب، بعضها أوضح بياناً من بعض.

ثم إنّ أهل اللغة أنشأوا علماً واسع الأنحاء، سمَّوْه علمَ البيان، فصَّلوا موضوعاته وأهدافه وأركانه، وكُتب فيه كثير من الكتب في القديم والحديث. من ذلك كتاب أسرار البلاغة للجرجاني الذي بدأه ببيان فضيلة البيان، إشارة إلى الآيات الكريمة في مطلع سورة الرحمن، فقال: "اعلم أنَّ الكلام هو الذي يعطي العلومَ منازلَها، ويبين مراتِبَها، ويكشفُ عن صورِها، ويَجْنِي صنوفَ ثمرِها، ويدلُّ على سرائرها، ويبرز مكنون ضمائرِها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان، ونبّه فيه على عِظَم الامتنان، فقال عزّ من قائل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، فلولاه لم تكن لتتعدى فرائدُ العلم عالِمَه، ولا صحّ من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمَه، ولتعطّلت قوى الخواطر الأفكار من معانيها، واستوت القضية في موجودها وفانيها..." [2]

ومنه كذلك كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، الذي جعل فيه البيان دلالة على المعنى، والتبيين مزيداً من الإيضاح، وضمنّه نماذجَ راقية "في البيان والتبيين، ما شابَهَ ذلك من غُرر الأحاديث، وشاكَلَهُ من عيون الخُطَب، ومن الفِقَر المستحسنة، والنُّتَف المستخرجة، والمُقَطَّعات المتخيَّرة، وبعضِ ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكَرة والجوابات المنتخَبة."[3]

---

(١) الشافعي، محمد بن إدريس (٢٠٤هـ). **الرسالة**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت.)، ص ٢١.

(٢) الجرجاني، عبد القاهر (٤٧٤هـ). **أسرار البلاغة**. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، جدة: دار المدني، ١٩٩١، ص ٣.

(٣) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ). **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٧، ١٩٩٨م، ج٣، ص ٥.

وفي معنى البيان وعلاقته بالمعاني والألفاظ يقول الجاحظ: "قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمتخلجة في نفوسهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة في فكرة مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة ... وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، ... وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع. والدِلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعتُ اللهَ عزَّ وجلَّ يمدحُه، ويعدو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم."[١]

وفي تفصيل هذا المعنى وصلته بطرق الدلالة اللغوية عليه يضع الجاحظ الدلالة في خمسة أصناف، فيقول: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأنَّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيءٍ بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع... وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياءَ، لا تنقص ولا تزيد: أوَّلُها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد[٢]، ثم الخطّ، ثم الحال التي تسمى نصبةً."[٣] فجمع بذلك علاقة الفكر والمعاني بأصناف اللغة منطوقة – مسموعة، ومرئية، ومحسوبة، ومكتوبة.

ويَقصدُ الجاحظُ بالخط الكتابةَ بالقلم، ويستشهدُ بالآيات القرآنية في هذا المقام، فيقول: "فأما الخط، فكما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضيلة الخط

(١) الجاحظ، **البيان والتبيين**، مرجع سابق، ج١، ص ٧٥.

(٢) لغة الحساب بإشارات أصابع اليد تسمى حساب اليد.

(٣) الجاحظ، **البيان والتبيين**، مرجع سابق، ج١، ص ٧٦.

والإنعام بمنافع الكتاب، قوله لنبيّه: اقرأ، وأقسم به في كتابه المنْزَل على نبيه المرسل، حيث قال: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، ولذلك قالوا: القلمُ أحدُ اللسانين، ... وقالوا: القلمُ أبقى أثراً، واللسانُ أكثر هذَراً."[١]

أورد الراغب الأصفهاني المعنى اللغوي للكتابة، والدلالات القرآنية المتعددة للكتابة، ومما أورده قوله: "الكَتْبُ، ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط،.... ويعبَّر عن الإثبات، والتقدير، والإيجاب، والفرض، والعزم، بالكتابة، ووجه ذلك أنَّ الشيء يراد، ثم يقال، ثم يكتب، فالإرادة مبدأٌ والكتابة منتهى. ثم يعبِّر عن المراد الذي هو المبدأ إذا أريد توكيده بالكتابة التي هي المنتهي."[٢]

وقد وردت مشتقات الجذر (كتب) في القرآن مئات المرات بصيغ مختلفة، لأنواع الاسم والفعل. وفي آية الدَّيْن وحدها من سورة البقرة وردت هذه المشتقات تسع مرات: فاكتبوه، وليكتب، كاتب، يكتب، فليكتب، تكتبوه، تكتبوها. والسياق هو الأمر بكتابة الدين، والتأكيد على ضرورة هذه الكتابة مهما كان الدين ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ والحكمة من الكتابة: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾.

وبقطع النظر عن اختلاف العلماء في أمر كتابة الدَّيْن الوارد في هذه الآية، هل هو للوجوب أم الندب، فإن المسألة هنا تختص بتشريعات التعامل بين الناس، وأهمية الصياغة القانونية لهذا التعامل، ليس في كتابة العقود فحسب، وإنما في الإشهاد عليها بشاهدين. كل ذلك من أجل حفظ حقوق المتعاملين. ففي مسألة الكتابة نجد في الآية توجيهاً بضرورة وجود الكاتب، وتوجيهاً للكاتب أن يقبل القيام بمهمة الكتابة، وتوجيهاً يحدد من الذي يملي النص المراد كتابته، وتوجيهاً بكيفية التعامل في حالات معينة، وتوجيهاً بضرورة الإشهاد، وتوجيهاً

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٧٩.

(٢) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت٥٠٢هـ). **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، ص ٤٢٣.

للشهود للقيام بمهمة الشهادة، وتحصيناً للكاتب والشاهد عن وقوع أي ضرر عليهما، وتوجيهاً بعدم التهاون في كتابة الدين مهما كان صغيراً أو كبيراً، وبيان للحكمة من الكتابة والشهادة، وتأكيداً على أنَّ هذه التوجيهات هي تعليم من الله سبحانه للناس، فعليهم أن يتعلموا... إلخ.

وقد أورد الخطيب البغدادي حديث النبي ﷺ "قيِّدُوا العلْمَ بالكتابة" بست روايات بألفاظ متقاربة. ومنها رواية عن عبد الله بن عمرو: "أنَّ رسول الله ﷺ قال: "قيِّدوا العلم" قلت: يا رسول الله وما تقييده؟ قال: الكتاب." وعقب الخطيب البغدادي على ذكر الحديثين بكلام طويل ثم ختمه: بقوله: "قد أوردت من مشهور الآثار، ومحفوظ الأحاديث والأخبار، عن رسول رب العالمين، وسلف الأمة الصالحين، صلى الله عليه ورضي عنهم أجمعين، في جواز كَتْب العلم وتدوينه، وتجميل ذلك الفعل وتحسينه، ما إذا صادف بمشيئة الله قويَّ شِّك رَفَعَه، أو عارضَ ريْبٍ قَمَعَهُ ودفعه، وأنا أذكر من أقوال أهل الأدب في فضل اقتناء الكتب، والأمر باتخاذها، والحث على جمعها، وإدامة النظر فيها، والتحفظ لعيون مضمونها، ووصف الشعراء لها، ليكون كتابي هذا جامعاً لمعنى ما يتعلق بتقييد العلم وحراسته، وباعثاً على صرف المرء عنايته إلى قراءته ودراسته. والله تعالى أسأل توفيقي للصواب، وعليه سبحانه توكلت وإليه مثاب."[1]

فالكتابة، لها مقام متميز في فنون البيان اللغوي، ويُعلى ابن خلدون من شأن الكتابة، فيشير أولاً في فصل بعنوان: "فصل في الإشارة إلى أمهات الصنائع" إلى أنَّ الكتابة من الصناعات الشريفة. والصنائع عند ابن خلدون هي المهن والأعمال التي يقوم بها النوع الإنساني، على أساس التخصص الذي يؤدي إلى التكامل في بناء العمران البشري. فمن الصنائع ما هو ضروري في العمران مثل الفلاحة والبناء والخياطة والنجارة، ومنها الشريفة بالموضوع مثل الكتابة

(١) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (توفي ٤٦٣هـ). **تقييد العلم**، تحقيق: يوسف العش، حلب: دار الوعي، ١٩٧٥م، ص ١١٦.

والوراقة، ثم يقول: "وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الإنسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان، ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف، ورافعة رتب الوجود للمعاني..."[١]

ويتوسع ابن خلدون في بيان ذلك في فصل آخر بعنوان: "فصل في أن الصنائع تُكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب"، يقول: "فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيد عقلاً فريداً... وهذه كلها قوانين تنتظر علوما، فيحصل منها زيادة عقل... والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك؛ لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع (الأخرى). وبيانه أن في الكتابة انتقالاً من الحروف إلى الكلمات اللفظية في الخيال، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس، وذلك دائماً، فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات، وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة، فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل، ويحصل به قوة وكَيْس في الأمور..."[٢]

يرى ابن خلدون أن ضعف الخبرة اللغوية في دلالة العبارة المكتوبة على الألفاظ المنطوقة ودلالة هذه على المعاني المطلوبة، وقوانين المنطق في ترتيب المعاني في القوالب المعروفة، ربما يوقف الذهن عن وضوح الأفكار وطلاقة التعبير عنها. وذلك لما يترتب على ذلك الضعف من حجب الألفاظ وشغب الجدل. ولذلك فإنه ينصح من يجد نفسه في مثل هذه الحالة أن يطّرح ذلك كله، ويخلص إلى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطر الله الإنسان عليه، ويسرّح نظره فيه ويفرغ ذهنه له، كما فعل أكابر النظار، وأن يطلب فتح الله عليه بالظفر في مطلوبه من الفكر، وبعد ذلك يستطيع الإنسان في رأي ابن خلدون أن يرجع إلى قوالب الأدلة المنطقية وقوانين اللغة، ويبرزه إلى عالم الخطاب والمشافهة.[٣]

---

(١) ابن خلدون. **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٢، ص ٨٤٦.

(٢) المرجع السابق، ج٢ ص ٨٩٧-٨٩٨.

(٣) المرجع السابق، ج٣، ص ١١١٢-١١١٣.

openkan.com

وربما يؤخذ من كلام ابن خلدون السابق أن المؤلف إذا أراد أن يكتب عن فكرة محددة، وردت إلى خاطره، ووجد أن قدرته اللغوية لا تسعفه في بيانها على الوجه الذي يريده، فإنَّ عليه أن لا يدع الفكرة تضيع منه، بل يقتنص اللحظة، ويعبر عن الفكرة بأية صورة متيسرة له، ثم ينظر -فيما بعد- في صياغتها بلغة أفضل. وبعض المؤلفين يستعينون بآخرين من تلاميذهم، أو يستأجرون كُتَّاباً يستعينون بهم، فيتحدث المؤلف إلى التلميذ أو الكاتب المساعد، الذي يلتقط الفكرة ويكتُبُها. وأكثر دور النشر اليوم تستعين بمحررين يضبطون اللغة ويجوِّدونها. وربما تقع بين المحرر والمؤلف محاورة للتأكد من سلامة العبارة في الدلالة على الفكرة المقصودة.

ثالثاً: نظريات العلاقة بين الفكر اللغة

اعتاد كثير من الكتاب والباحثين أن يزينوا صفحة من صفحات كتابتهم الأولى بعبارة كتبها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، في رسالة بعث بها إلى العماد الأصفهاني، وكان الاثنان من الكتاب في حاشية صلاح الدين الأيوبي. والعبارة هي: "إِنِّي رَأَيتُ أَنَّهُ لاَ يَكْتُب أَحَدٌ كِتَاباً فِي يَومِه إِلاّ قَالَ فِي غَدِه، لَو غُيِّرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَن، وَلَو زِيدَ هَذَا لَكَانَ يُسْتَحسَن، وَلَو قُدِّمَ هَذَا لَكَان أَفْضَل، وَلَو تُرِكَ هَذَا لَكَانَ أَجْمَل، وَهَذَا مِن أَعْظَمِ العِبَرِ، وهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اِستِيلاَءِ النُقصِ عَلَى جُملَةِ البَشَر."[1]

ويبدو أن هذه الظاهرة تتنازع البشر عندما يقولون أو يكتبون، فيقارنون بين ما كان في أذهانهم، وما نطقت به ألسنتُهم أو خطَّتُه أقلامُهم، فيشعرون أنَّ لديهم من الأفكار أكثر مما تضمنته اللغة التي بها نطقوا أو كتبوا، ومن ثَمَّ بقيت عنده أفكار عجزت صفحاتُ الكتاب أو فسحةُ الوقت أو سعةُ الجهد الذي خُصِّص للكتابة عن أن تتَّسع لها. بل يشعر الكاتب أحياناً أنَّ الكلمات التي حَمَلت الأفكارَ المكتوبة لم تحمل معها الحالة الوجدانية والانفعالية المشبعة

(١) حاجي خليفة. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مرجع سابق، ج١، ص١٨.

بالخيال. ألا يُعدُّ ذلك مؤشراً على أنّ مخزون المضامين الفكرية أوسع من طاقة التعبيرات اللغوية؟!

الفكر فاعلية نفسية واجتماعية ولغوية، ولذلك فإنه موضوع لدراسات علم النفس وعلم الاجتماع وعلم اللغة، فضلاً عن تطبيقات هذه العلوم في علوم أخرى عديدة، مثل الإعلام والسياسة والاقتصاد، إلخ. وقد كانت العلاقة بين الفكر واللغة موضوعاً مهماً من موضوعات الفلسفة، منذ بدايات عهدها، فالمنطق وهو فرع من فروع الفلسفة هو علم دراسة التفكير، واللغة أداة الإفصاح عن الفكر وهو المعاني التي يقود إليها التفكير. وهذه العلاقة هي كذلك موضوع من موضوعات علم الاجتماع؛ فلكل مجتمع لغته التي يتواصل أفراده عن طريقها، واللغة أهم عناصر الثقافة التي يكونها المجتمع، وثمة فرع من فروع هذا العلم هو علم اجتماع اللغة. وهذه العلاقة هي كذلك أحد موضوعات علم النفس. وتتوزع نظريات علم النفس في تطوره في العالم الغربي، على عدد كبير من المدارس والفلسفات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مدارس التحليل النفسي، والتحليل الاجتماعي، والمدارس السلوكية، والمدارس المعرفية البنائية، والمدارس المعرفية الثقافية، والمدارس النفسية الوجودية، والمدارس المعرفية المعلوماتية، إلخ. ولكل مدرسة نفسية تفسيرها للعلاقة بين الفكر واللغة، ولو رجع القارئ إلى مرجع مناسب عن هذه المدارس لوجد أن كل مدرسة لها تفرعاتها، وكل فرع منها يعرف باسم عالم من العلماء الغربيين، وسوف يجد غياباً مذهلاً للمدرسة الإسلامية في علم النفس.[1]

(١) أمثلة على هذه الكتب:

- جرين، جودث. **التفكير واللغة**، ترجمة: عبد الرحمن بن عبد العزيز العبدان، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٠هـ.
- سيرل، جون. **العقل واللغة والمجتمع**، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت: الدار العربية للعلوم - ناشرون، والمركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤م.
- فيغوتسكي، ليف. **التفكير واللغة**، ترجمة: طلعت منصور، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٧٠.

والاطلاع على المقولات الإجمالية لهذه النظريات قد يكون مفيداً إذا أمكن وضعها في البنية الفكرية المستقرة للإنسان المسلم، القادر على التعامل معها بنظرة تحليلية نقدية، وفق منهجية التكامل المعرفي التي يستمدها من رؤية العالم الإسلامية، وهذا ما قام به عالم النفس الإسلامي "مالك بدري" في عدد من دراساته في علم النفس، وممارساته في العلاج النفسي. وهو في موضوع العلاقة بين اللغة والفكر لا يختلف كثيراً مع علماء النفس الآخرين في التأكيد على وجود رابطة قوية بين الفكر الإنساني واللغة؛ ذلك: "أن اللغة عند الإنسان ليست وسيلة للتخاطب والاتصال فحسب، بل هي في الحقيقة النظام الأساسي الذي يستخدمه الإنسان في التفكير."[1]

وفيما يلي عرض موجز لعدد من النظريات التي حاولت تفسير العلاقة بين الفكر واللغة.

١- النظرية السلوكية Behaviorist Theory

وهي مدرسة في علم النفس ومدرسة في التعلم، ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية من بدايات القرن العشرين من خلال أعمال واطسون (توفي ١٩٥٨م) وكانت أكثر المدارس النفسية والتربوية تأثيراً في النصف الأول حتى مطلع الستينات من القرن العشرين، وتعتمد على مفهوم السلوك الذي يؤديه الفرد، استجابة لمثيرات خارجية، ويتعزز السلوك بالمكافأة عليه. والسلوك اللغوي هو واحد من أنواع السلوك. ووفقاً لهذه النظرية يبدأ الطفل حياته دون أي قدرات لغوية، ثم يبدأ باكتسابها بتقليد الأصوات التي يسمعها في البيئة المحيطة، ويتركز المضمون المعرفي في نوع الإثارة التي تثير اهتمام الطفل. فاللغة في نهاية المطاف هي عادات يتعلمها الأطفال من البيئة عن طريق التقليد والتعزيز والتكرار. وترى جودث جرين أن كتاب سكنر (توفي عام ١٩٨٥م) "السلوك اللفظي" يعد "محاولة بارعة لشرح اللغة دون الأخذ

(١) بدري، مالك. **التفكر من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية**، مرجع سابق، ص ٢٧-٢٩

في الاعتبار أي أحداث عقلية، مثل الأفكار أو المعاني، أو القواعد النحوية."[1]

٢- الحتمية اللغوية والنسبية اللغوية:

من أكثر النظريات التي نالت نقاشاً موسعاً نظرية سابير - وورف. وتعود جذورها إلى أعمال الأنثروبولوجي واللغوي الأمريكي إدوارد سابير (ت ١٩٣٩) وتلميذه بنجامين وورف (ت ١٩٤١). وتتلخص هذه النظرية في أنَّ اللغة في المجتمع تؤدي وظيفتين متلازمتين: الأولى هي الوظيفة التواصلية؛ إذ يفكر أبناء ذلك المجتمع ويتواصلون بوساطة لغتهم، والثانية هي الوظيفية التمثيلية؛ إذ تقوم هذه اللغة بصياغة رؤية للمجتمع للعالَم، فلكل مجتمع لغتُه ومن ثَمَّ رؤيته للعالَم. ويلاحظ أن نظرية سابير - وورف تقوم على مبدأين الأول هو الحتمية اللغوية (linguistic determinism)، حيث تحدد لغة المجتمع الطريقة التي يفكر فيها أفراد ذلك المجتمع. فالأفكار التي يتبنّاها المجتمع هي مضامين التواصل اللغوي؛ أي إنّ اللغة تحدد الفكر. والمبدأ الثاني هو مبدأ النسبية اللغوية، linguistic relativity، ويختص هذا المبدأ ببنية اللغة التي يستخدمها المجتمع، حيث تعمل هذه البنية على تشكيل مفاهيم المجتمع عن العالَم، وعليه فإنَّ بنية النظام اللغوي تتضمن رؤية خاصة للعالَم تختلف عن رؤية العالم التي تتضمنها بنية نظام لغوي آخر، فالمجتمعات التي تتحدث بلغات مختلفة يفكر أفرادها بطرق مختلفة.

٣- نظرية الإبستمولوجيا التكوينية في النمو المعرفي Cognitive Development

وقد طورها العالم السويسري جان بياجيه (١٨٩٦-١٩٨٠) ورأي أن المعرفة ليست سوى تاريخ الأفكار. وترتكز فلسفته التي يسميها الإبستمولوجيا التكوينية Genetic Epistemology، على تأثير التركيب البيولوجي للفرد على قدرته العقلية، ويعد تطور الفرد في المجمل محاولة استيعاب للبيئة التي يعيش فيها والتكيف معها.[2]

---

(١) جرين، **التفكير واللغة**، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٢) بياجيه، جان. **الإبستمولوجيا التكوينية**، ترجمة: السيد نفادي، دمشق: دار التكوين، ٢٠٠٤م.

ويرى بياجيه أن النمو المعرفي يحدث بصورة طبيعية مع تقدم الإنسان في مراحل حياته الأولى، ويكتسب الطفل مفاهيم وأفكاراً قبل أن يصبح قادراً على التعبير اللغوي عنها، ولا يستطيع التعبير اللغوي عن موضوع ما قبل أن يُكوِّن فكرة عن الموضوع، لكن اللغة مع ذلك تسهم في تسريع النمو العقلي والفكري. وقد طور بياجيه نظريته في النمو الفكري عند الأطفال من خلال تجارب عملية. واتخذ موقفاً معاكساً لنظرية النسبية اللغوية، ذلك أنه كان مهتماً بمراحل تطور النمو العقلي عن الأطفال بغض النظر عن لغة المحيط الاجتماعي الذي يعيشون فيه. واللغة عند بياجيه ليست مسؤولة عن الفكر، مع أن لها دوراً في تسهيل التفكير الرمزي، لكن الطفل لا يستطيع أن يفهم اللغة إذا لم يكتسب الفكرة الكامنة وراء التعبير اللغوي.

فاللغة والتفكير عند بياجيه كلاهما يعتمدان على الذكاء، ونمو القدرات الذكائية عند الأطفال يسبق اللغة ويستقل عنها. وليس من السهل فهم هذا الموضوع دون ربطه بالنمو البيولوجي عند الأطفال، ومراحل النمو التي يمر بها الطفل. والذكاء بإيجاز شديد هو عملية تكيف، والتكيُّف هو التوازن بين فعل الفرد في البيئة، وفعل البيئة في الفرد. ويمر الطفل في أثناء نموه بأربع مراحل تبدأ بمرحلة التفكير الحس حركي، ثم مرحلة ما قبل العمليات اللغوية أو ما قبل المفاهيم، ثم مرحلة العمليات العقلية العيانية أو المفاهيم اللغوية، وأخيراً مرحلة العلميات العقلية الشكلية أو المجردة.[1]

٤- نظرية الوقف البيولوجي الموروث

وقد طورها أساساً الفيلسوف الأمريكي المعاصر نعوم تشومسكي Naom Chomsky، (١٩٢٨- ...) ولهذا الفيلسوف جملة من الأفكار ذات الصلة بعلاقة الفكر باللغة، وعرف بعدد من العناوين مثل النظرية التوليدية التحويلية،

(1) Piaget, Jean. *The Psychology of Intelligence*, Translated by Malcolm Piercy and D. E.Berlyne, London and New York: Routledge Classic, Reprint 2003, page 128–137.

ومفهوم المستوى السطحي والمستوى العميق للغة، والقواعد العالمية، والإرث البيولوجي للغة... إلخ. لكنه عرف كذلك بقدرته على توظيف أفكار غيره من السابقين والمعاصرين ونقدها وتجاوزها، فضلاً عن التطوير المستمر لأفكاره هو. ونكتفي في عرض نظرياته العديدة ذات الصلة بمسألة العلاقة بين الفكر واللغة المبثوثة في عدد من أعماله المهمة، بشيء من كتاباته الأخيرة فواحد من أواخر ما كتب كتاب صدر عام ١٩٩٣، خصصه لمسألة الفكر واللغة دون غيرها، وكتاب آخر هو آخر كتاب صدر له، وكان بعنوان اللغة والعقل، صدر عام ٢٠٠٦م، ونحن هنا نشير إلى الطبعة الخامسة الصادرة عام ٢٠١٢م. من هذا الكتاب، وفيه أعاد نشر بعض ما نشر في ستينات القرن العشرين، لكنه أضاف إليه فصلاً جديداً ليعيد تنظيم أفكاره حول موضوع الفكر واللغة، وهذا الفصل هو ما سوف نشير إليه.

يعتقد تشومسكي أن الإنسان: "يملك بطبيعته إطاراً عاماً من المعتقدات التي لا يملك الإنسان إلا أن يلتزم بها."[1] وأننا أصبحنا نملك الآن "أدلة كبيرة، إلى حد ما، حول مكونات العقل/الدماغ، وأن واحداً من هذه المكونات هو القدرة اللغوية، التي تمكن الإنسان من استعمال اللغة، ونحن نعني هنا اللغة البشرية وليس بأي معنى مجازي للكلمة. وأن ثمة مكوناً آخر في العقل الإنساني هو الفهم البدهي المشترك الذي يمكن عامة الناس من فهم العالم الخارجي ومكانهم فيه، وهو ما يسمى غالباً علم النفس الشعبي folk psychology الذي هو الوقف الإنساني المشترك، وهو منحة مباشرة من الطبيعة. إضافة إلى مكونات أخرى تمكِّن الإنسان من إجراء البحث العلمي والرياضي وأحيانا تحقيق بصيرة متفوقة: يمكن أن نسمي هذا المكون "ملكة بناء العلم" الذي يختلف عن الفهم البدهي المشترك.[2]

(1) Chomsky, Noam. *Language and thought*, Wakefield, Rhode Island & London: Moyer Bell, 1993, p 32.

(2) Ibid., p. 34.

ويرى تشومسكي أنَّ "لدينا الآن من المعرفة ما يكفي للإشارة إلى أن الاختلافات بين اللغات ليست كثيرة بالمقارنة مع المشتركات الهائلة."[1]

ويشترك تشومسكي مع كثير من العلماء الآخرين في أنَّ القدرة اللغوية هي من الخصائص المقصورة على النوع الإنساني في مكوناتها الأساسية، وهي جزء من ذلك الوقف البيولوجي biological endowment أو الموروث الجيني genetic inheritance، وأن الفرد الإنساني يمرُّ في أثناء نموِّه بخبرات تصوغ القدرة اللغوية وتشكِّلُها تدريجياً، حتى تبلغ حالة ثابتة مستقرة نسبياً عند سنّ البلوغ. ولكن التطور والتغير بعد ذلك لا يتعلق بالقدرة الكامنة وإنما في الرصيد اللغوي المكتسب. ويميز تشومسكي بين عنصرين في اللغة البشرية، الأول هو نظام معرفي والثاني هو نظم الأداء. فالنظام المعرفي يخزن المعلومات التي يتم الوصول إليها عن طريق أنظمة الأداء، ويستخدمها لضبط الصياغة، والتفسير، والتعبير عن الفكر، وطرح الأسئلة، والإشارة، وغير ذلك.[2] وأنّ "الدراسات التي أجريت في السنوات القليلة الأخيرة قد نجحت إلى حد ما في تحديد مبادئ عامة في اللغة يمكن أن تعزى إلى وقف فطري."[3]

وهذا يعني أنّ اللغة تدخل بطريقة جوهرية في الفكر والعقل والعلاقات الاجتماعية. فخاصية وجود اللسان الذي يعبر عن اللغة عند البشر من جميع الأعراق والألوان، خاصية مشتركة، وربما كانت هذه الخاصية تعبر في الوقت نفسه عن وظائف أساسية مشتركة في حياة البشر مثل إعطاءِ المعلومات وطلبِها، والتقائها على عدد من المسلّمات العقلية مثل أنّ الاثنين أكبر من الواحد، وأن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين، وقابلية ترجمة الأفكار من لغة إلى أخرى. وحقائق الدين الأساسية كلها واحدة، فتوحيد الله سبحانه، وحقيقة النبوة،

(1) Ibid., p. 48.

(2) Ibid., p. 47.

(3) Ibid., p. 50.

وحقيقة المعاد... كانت الأساس في كل الرسالات السماوية، وهي هي الحقائق نفسها، رغم أن كل رسول كان يرسل بلسان قومه ليبين لهم.

ويناقش نعوم تشومسكي نظريات علماء اللغة المحدثين، لا سيّما الذين يقولون بالنسبية اللغوية، فيؤكد أن النظم اللغوية المختلفة عند البشر، مهما اختلفت في مستوياتها السطحية، فإنها تتشابه في مستوياتها العميقة. ويتساءل: ألا يعني ذلك أن قدرة اللغات المختلفة على وصف الواقع بصورة متشابهة أو متقاربة، هي وسيلة من وسائل التواصل بين الأمم والشعوب رغم اختلاف لغاتها؟! ألا يشكك ذلك في الصدق المطلق لمقولة أن اختلاف اللغات بين الشعوب يؤدي إلى اختلاف رؤية العالم؟!

ويبدو أن المدخل الذي قاد أعمال تشومسكي من بداياتها في خمسينات القرن العشرين حتى الآن هو مدخل "اللسانيات البيولوجية Biolinguistic approach" الذي أعاد تعزيز فهمه له في آخر ما كتب في مجال سعيه للوصول إلى تفسير للغة يقوم على مبادئ مستقرة principled explanation. وهذا المدخل ينظر إلى لغة الفرد الإنساني بوصفها حالة محددة لمكون من مكونات العقل.[1] وأن المسألة هي عنصر من عناصر النظرة الحديثة إلى العلم، حيث لا يكون هدف البحث العلمي الوصول إلى تفسيرات نهائية، وإنما للوصول إلى أفضل تفسير نظري لظاهرة معينة تقع ضمن خبرة الإنسان أو تكون موضوعاً لتجربته... "وأن الأطروحة التي تقود هذه المسعى في مجال اللغة هي أن "الأشياء التي نسميها عقلية، أو بالتأكيد العقل نفسه، هي خصائص تنشأ عن الدماغ، مع أن هذه الخصائص الناشئة غير قابلة للاختزال، وإنما يتم إنتاجها وفقاً لمبادئ... لم نتمكن من فهمها حتى الآن."[2]

(1) Chomsky, Noam. *Language and Mind*, Cambridge: Cambridge University Press, 2012, p. 173.

(2) Ibid., p 174.

ورغم الجدل الذي انتاب ولا يزال ينتاب فكرة دراسة اللغة بوصفها جزءاً من العالم الطبيعي، فإن تشومسكي لا يزال يفترض أن الجوانب المهمة من اللغة يمكن أن تدرس بوصفها جزءاً من العالم الطبيعي، وهذا هو معنى "منحى اللغويات البيولوجية" الذي أخذ شكله منذ نصف قرن من الزمان ولا يزال يُتَّبع ضمن عدد من المسارات.(١)

ونظراً لأن الدراسة الطبيعية في مجال الكائنات الحية تعتمد في الأساس نظرية التطور العضوي، والانتخاب الطبيعي، فإن تشومسكي يستشهد بأقوال عدد من العلماء، ويميل إلى الاعتقاد بأن "اختراع اللغة" في سجل التطور العضوي كان أمراً مفاجئاً وسريعاً، وحدث في صورة "قفزة كبيرة إلى الأمام" great leap forward، وأن الأمر هو حدث وراثي معين سمح بإعادة تصميم شبكة الدماغ، بصورة تسمح بظهور أصل اللغة البشرية الغنية بالتراكيب، القادرة على إنتاج مدى واسعٍ من وسائل التعبير عن الفكر.(٢)

ويعتقد تشومسكي أن هناك ثلاثة عوامل تؤثر في نمو اللغة عند الفرد الإنساني: الأول هو عوامل وراثية تعد وقفاً فطرياً يملكه كل فرد في النوع البشري، وهذه العوامل تحدد المسيرة العامة لنمو القدرة اللغوية، والثاني هو الخبرة التي يمر بها الفرد وتؤدي إلى اختلاف الأفراد عن بعضهم، ولكن هذا الاختلاف يبقى في نطاق ضيق لا ينافس العامل الأول، أما العامل الثالث فهو مجموعة من المبادئ غير اللغوية، مثل مبادئ المعمار البنائي الذي يحدد النتائج ومبادئ الحساب الفعال الذي يحدد الخصائص العامة للغة المكتسبة، وهي مبادئ تذكرنا بمعتقدات بعض علماء الطبيعة من قبل، مثل قولهم: إن الطبيعة كاملة، وإن الطبيعة بسيطة جداً، وإن الطبيعة تسعى إلى الجمال. وفي السنوات الأخيرة أخذ تشومسكي ينقل الاهتمام الأكبر في فهم التصميم اللغوي

(1) Ibid., p. 175.

(2) Ibid., p. 176.

من العامل الأول إلى العامل الثالث الذي يقدم إجابات عن الأسئلة الرئيسية لبيولوجيا اللغة واستعمالها وتطورها. ومن ثم فهو يرى أن التعبيرات اللغوية التي تنتجها اللغة يجب أن تلبي شرطين متداخلين: الشرط الأول هو ما يفرضه النظام الحسي حركي للجهاز اللغوي، والشرط الثاني الذي يفرضه نظام الفكر الذي يبنى بصورة مقصودة، ويدخل في القدرة الفكرية البشرية وتنوعات الفعل اللغوي.[١]

ويختم تشومسكي الفصل المشار إليه بالقول: "إن السعي للوصول إلى تفسير يقوم على مبادئ مستقرة، يواجه مهمات تدعو إلى التهيُّب! فنحن نستطيع أن نصوغ الأهداف بوضوح معقول، لكننا لا نعرف كيف نحققها، والهدف هو إلى أي حد يمكننا أن نعرف أن الملكة اللغوية تعزى إلى مبادئ عامة تحكم الكائنات الحية؟ إننا في كل خطوة نحو الهدف نكتسب فهماً أوضح للخصائص المحورية الخاصة بالملكة اللغوية، ولكن يبقى المجال مفتوحاً لأسئلة عديدة، أثيرت منذ مئات الأعوام، ولا نملك إجابات عنها، ومن هذه الأسئلة مثلاً: كيف تتصل الخصائص العقلية بالبنية العضوية للدماغ، وهي مسائل يصعب حلها عند الحشرات، ولكنها ذات جوانب متميزة وغامضة جداً عندما نفكر بالملكة اللغوية البشرية، وأصولها التطورية."[٢]

ويبدو أن النظريات المتعاقبة التي حاولت فهم العلاقة بين اللغة والفكر، سوف تستمر، وليس من المتوقع أن تحسم الموضوع نظرية واحدة، ذلك أن العلماء الذي يبحثون الموضوع يأتون من خلفيات مختلفة تنتمي إلى علوم الفلسفة والاجتماع والنفس. وأن التحليل النظري والتجريب العملي في الموضوع، لا يخلو من الاعتماد على عناصر مفيدة في فهمه، لكنها في الوقت نفسه غير كافية، فكل نظرية تفسر جانباً من الموضوع، ولا تفسر الموضوع كله.

(1) Ibid., p. 183.

(2) Ibid., p. 185.

ويبدو أن الموضوع سيبقى مفتوحاً للاجتهاد والحوار والجدل. أليست هذه طبيعة المعرفة البشرية!

ورغم أن كثيراً من علماء المسلمين توقفوا في فهم علاقة الفكر باللغة عند الآية القرآنية: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١]، فإنهم توزعوا في فهمها على عدد من الأقوال، كما أشرنا إلى ما كتبه ابن جنّي من قبل؛ هل كان تعليم اللغة توقيفاً من الله سبحانه مباشرة ألهمه اللغة والنطق بها، إشارة إلى أسماء الأشياء ومن ثم إلى معانيها؟ أم أن الله سبحانه قد وهبه القدرة على التعلم، فتعلَّم مباشرة؟ أو أنه تعلَّم بمرور الوقت؟ ولماذا تم هذا التعليم بعد خلق الإنسان، ولم يخلق مزوداً بها؟ وكيف أن اللغة هي الرموز المنطوقة والمكتوبة والمرسومة والمتحركة هي كلها أساس ما يمتلكه الإنسان من فكر وعلم وثقافة، فاللغة هي أم الرموز الثقافية.(١)

سوف يواصل علماء الطبيعة وعلماء الاجتماع بحثهم في مسألة العلاقة بين الفكر واللغة سواءً كانوا ينطلقون من فلسفة طبيعية واجتماعية بحتة، دون النظر إلى هداية الوحي الإلهي، أم كانوا يأخذون بالحسبان هذه الهداية ويودون معرفة المزيد من العلم في ظلال هذه الهداية. لكن الذي نستطيع الاطمئنان إليه في خاتمة الحديث عن العلاقة بين الفكر واللغة، مجموعة من المبادئ التي ربما لا يقع حولها خلاف كبير:

- ليس من السهل أن نتخيل فكراً بشرياً دون تعبير لغوي عنه، وليس من السهل أن نستبعد أثر الفكر في إغناء اللغة فالعلاقة بين الفكر واللغة علاقة تبادلية تكاملية.
- نحن نؤمن أن الله سبحانه خلق الإنسان الأول، آدم أبا البشر، ثم زوده

(١) الذوادي، محمود. وعلم آدم الأسماء كلها في ميزان الرموز الثقافية، **مجلة إسلامية المعرفة**، السنة ١٩، العدد ٧٥، شتاء ١٤٣٥/ ٢٠١٤، ص ١٦١-١٨٦.

بالملكة اللغوية بكيفية معينة ليس من السهل أن نتعرف عليها بقدر من اليقين.

- الملكة اللغوية جزء من الخلق الإلهي الفطري الموروث "التصميم" في الكيان البشري، وهي ترتبط بأدوات السمع والبصر والنطق، وكلها مهيأة للقيام بأدوار تتصل باللغة والفكر. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]
- من المعقول أن نتخيل أن اللغة البشرية كانت في أول عهدها لغة واحدة، ثم توزع الناس في مناطق جغرافية منعزلة، فتباعدت اللهجات، ثم تطورت إلى لغات متمايزة.
- الإنسان في كل العصور كان يتعلم اللغة ويعبر بها عن فهمه لما يحيطه به، عن طريق ما يسمعه في البيئة اللغوية التي ينشأ فيها.

ملخص لعدد من نظريات العلاقة بين الفكر واللغة

	النظرية	اسم العالم	وفاته	مقولات النظرية
١	السلوكية	واطسون- سكنر	١٩٥٨ ١٩٨٥	اللغة نوع من السلوك، يكتسبه الفرد عن طريق التقليد والتعزيز والتكرار
٢	الإبستمولوجيا التكوينية	بياجيه	١٩٨٠	اللغة تاريخ الأفكار، تنمو اللغة من النمو البيولوجي، الفكر قبل اللغة
٣	الحتمية والنسبية اللغوية	سابير- وورف	١٩٣٩ ١٩٤١	وظيفة اللغة: التواصل والتكرار، اللغة تحدد التفكير، بنية النظام اللغوي تحدد رؤية العالم
٤	الوقف البيولوجي المشترك	تشومسكي	-...	اللغات لها مستويات سطحية مختلفة ومستوى عميق متشابه، أساس فطري مشترك لدى البشر

obeikan.com

رابعاً: الفكر والترقي في المهارات اللغوية

اللغة العربية عند المهتمين بالفكر ليست موضوع اختصاص، وإنما هي وسيلة تواصل وتعبير وتفكير. وبقدر ما يملك الفرد من مفردات اللغة وتراكيبها ونصوصها المنظومة شعراً أو نثراً، يكون لديه مرونةٌ في صياغة أفكاره والتعبير عنها بوضوح، ونفاذِ حُجَّةٍ، وقوةِ تأثير. ومن الاهتمام باللغة العربية تفعيلُ قواعدِها، لاً سيّما القواعد التي لا يهتم بها كثيرون، حتى بعض المتخصصين في اللغة، مثل قواعد النحت والاشتقاق. فبعض الأفكار الجديدة تحتاج إلى نحت مفردة لغوية جديدة أو اشتقاق تركيب لغوي جديد، وربما تصبح المفردة أو التركيب "بصمة" تُميِّز من نَحَتَها أو اشْتَقّها. وبعض الأفكار والمعاني تستقر في عقل السامع أو القارئ بصورة محببة إلى النفس، عندما تصاغ بطريقة موزونة يسهل حفظها وتذكرها بنصِّها، على صورة بيت أو بيتين من الشعر.

ويكتسب الإنسان كثيراً من عناصر الملكة اللغوية من البيئة الاجتماعية الغنية التي ينشأ فيها. ولكنَّ وَعْيَه على ضرورة النموِّ والترقي في اكتساب هذه العناصر، يزيد في إمكانية استفادته من تلك البيئة، ويحفزه على استخدام وسائل متعددة في تحقيق هذا النمو والترقي. ويبقى مع ذلك أنَّ تعلّم القرآن الكريم تلاوة وحفظاً يعدّ من أفضل الطرق والوسائل لتقويم اللسان وضبط الألفاظ وإغناء الأفكار، والترقي بمعاني الكتابة وألفاظها.

وقد أوضح ابنُ الأثير أثرَ القرآن الكريم في تنمية الملكة اللغوية في عدد من المواقع في كتابه "المثل السائر"، لعل أكثرها وضوحاً قوله: "إذا عَرَفَ مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن الكريم، اتَّخذَه بَحْراً يستخرج منه الدرر والجواهر، ويُودعها مطاوي كلامِه، كما فَعلْتُه أنا فيما أنشأتُ من المكاتبات، وكفى بالقرآن الكريم وحْدَه آلةً وأداة في استعمال أفانين الكلام."[1] ومن ذلك ما أورده عن حفظ القرآن الكريم يقول: "الكاتب إذا أحبَّ الترقِّي

(١) ابن الأثير، ضياء الدين (٦٣٧هـ). **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانه، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د. ت.)، ص ٦١.

إلى درجة الاجتهاد في الكتابة، فإنَّه يحتاج إلى أشياء كثيرة، قد ذكرتُها في صدر كتابي هذا، إلا أنّ رأسَها وعمودَها وذِرْوَةَ سنامِها ثلاثةُ أشياء، هي حفظ القرآن الكريم، الإكثار من حفظ الأخبار النبوية، والأشعار."[1]

والتفاعل الفكري بين الناس يلزمه استعمال وسائله المختلفة التي تؤدي كلُّ وسيلة دوراً لا تؤديه الوسيلة الأخرى. فهذا التفاعل مثلاً لا يكفي فيه الاقتصار على المشافهة وإلقاء المحاضرات، ولا يكفي فيه الاقتصار على الكتابة وتبادل النصوص المكتوبة، فالمشافهة والمكاتبة أمران متكاملان؛ لأنَّ كلاً منهما يؤدِّي دوراً مختلفاً عن الآخر. وتشير دراسات علم اللغة التطبيقي وعلم اللغة الاجتماعي إلى أنَّ أصل جميع اللغات هو الخطاب الشفاهي. ومع أنَّ الأعراق البشرية طورت آلاف اللغات، فإنّ القليل منها هو الذي بقي؛ لأنَّ اللغات التي اختفت لم تكتب أبداً. وتقرر هذه الدراسات أنَّ "الأصل الشفاهي للغة سمة لاصقة بها... والكتابة تعطي اللهجةَ قوةً تنِدُّ عن تلك التي تكون لأية لهجة شفاهية خالصة."[2]

فاللغة الشفاهية تؤدي مهمة مختلفة عن لغة الكتابة، فالأولى تمكن المتحدث من سحب المستمع إلى الخارج ليكون واحداً في الجماعة أو الجمهور، يحرك فيهم أفكاراً مشتركة، ويثير فيهم مشاعر مشتركة، ويكون الحديث أو الخطبة عاملاً من عوامل توحيد وعيهم وإدراكهم للموضوع الذي يجري الحديث عنه، وهو أمر يحرص عليه المفكر. أما المادة المكتوبة فإنها تستدعي أن يتوجه الفرد إلى قراءتها بمفرده، فتكون القراءة نشاطاً داخلياً يجذب القارئ إلى نفسه، ليتفحص وضوح الفكرة التي يقرأها، ويقيم حواراً داخلياً بين مضمونها والمضامين الفكرية ذات الصلة بها، حين يستدعي هذه المضامين من ذاكرته

(١) المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٢) أونج، والتر ج. **الشفاهية والكتابية**. ترجمة: حسن البنا عز الدين، مراجعة: محمد عصفور، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – سلسلة عالم المعرفة رقم ١٨٢، شباط ١٩٩٤، ص ٥٤.

وبنيته الفكرية السابقة، وهو أمر يحرص عليه المؤلف حين يكتب، على أمل أن يقوم الناس بقراءة أفكاره المكتوبة.

وإذا كانت المشافهة أقرب إلى الفطرة والطبيعة البشرية البسيطة، عندما نقارنها بالكتابة التي تطورت فيما بعد نتيجة تراكم الخبرة البشرية، واكتسابها لـ"تكنولوجيات" لاحقة، فإنَّ ذلك لا يقلل من أهمية الكتابة وقيمتها، ذلك أن: "... الكتابة بالغة القيمة إلى حد بعيد، وأساسية حقاً، لتحقيق الإمكانات الإنسانية الداخلية الكاملة، وليست التكنولوجيات مجرد عوامل مساعدة خارجية، بل هي تحولات داخلية للوعي، وتكون كذلك كأكثر ما تكون عندما تؤثر في الكلمة، ويمكن أن ترفع هذه التحولات من روح الإنسان المعنوية، وتزيد الكتابة من حدة الوعي. والغربة عن الوسط الطبيعي يمكن أن تنفعنا، بل هي في الحقيقة جوهرية للحياة الإنسانية التامة من جهات عديدة، ونحن لكي نحيا ونتفاهم أصلاً، لا نحتاج إلى القرب فحسب، بل نحتاج إلى البعد كذلك."[1]

وتظهر قيمة الكتابة في أثرها الباقي مع الزمن، وربما يستمر تأثيرها حتى لو تم نقض محتواها، وتفنيده تماماً: "لكن المؤلف لا يمكن الوصول إليه في أي كتاب، فليس ثمة طريقة مباشرة لدحض نص، فحتى بعد التفنيد الكلي والمدمر لأفكار الكتاب، يظلُّ النص يقولُ ما قالَه من قبلُ تماماً. وهذا أحد الأسباب لشيوع عبارة "الكتاب يقول"، بمعنى أنَّ القول صحيح، وهو أيضاً أحد الأسباب التي من أجلها أحرقت الكتب، والنص الذي يقول ما يعرف العالَم كلُّه أنه باطل، سيظل يقول هذا البطلان إلى الأبد ما بقي النص، فالنصوص عصيّة بطبيعتها."[2]

وإذا كانت الفلسفة صورة متقدمة من إنجازات الفكر البشري، فإنها أبعد ما تكون عن العقل الشفاهي. إن "الفلسفة إذا تأملت في طبيعتها، فإنَّ عليها أن تفسر كون التفكير الفلسفي لا يمكن أن يتم بوساطة تعقل الإنسان وحده، بل

(١) المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٨.

بوساطة العقل الإنساني الذي ألف تكنولوجية الكتابة التي استوعبها استيعاباً عميقاً... والكتابة تفتح أمام الكلمة وأمام الوجود الإنساني إمكانات لا يمكن أن تحتلها من دون الكتابة."[1]

وقد تطورت تكنولوجيات المشافهة والمكاتبة فأصبحت متاحة للاستماع والقراءة في أي وقت وبصورة متكررة، بل وبتقانات وأساليب جديدة تماماً، تتيح للمستمع أو القارئ أن يتفاعل من المواد المسموعة والمقروءة، فيطلب التوضيح، أو يلجأ إلى المناقشة والموافقة أو الاعتراض، وقد تم ذلك كله مع تطور أساليب النشر الإلكتروني للمحاضرات والخطب، وللمقالات والكتب. وأصبحت هذه الفرص متاحة للناس عبر شبكات تواصل دولية يدخل إليها الملايين في كل لحظة.

لقد نقل التسجيل الإلكتروني أساليب التفاعل الفكري بالمشافهة والكتابة إلى عصر جديد يتمكن فيه صاحب الفكر أن يتواصل مع أعداد كبيرة جداً من الناس، فيستمع، ويتحدث، ويتحاور، ويقرأ، ويكتب. وليس ثمّة شك في أنَّ على المهتم بالتفاعل الفكري، مثقفاً كان، أو مفكراً، أو داعية، أو مصلحاً، أن يلجَ هذه الساحات المفتوحة وأنْ يكونَ له فيها نصيبٌ، تأثُّراً وتأثيراً.

خامساً: العبث الفكري واللغوي

ومن الضروري الوعي بالجهود التي تستهدف العبث بالفكر واللغة؛ ذلك أنّ مضامين اللغة هي معان تتفاوت في قيمتها، وتتفاوت في مصداقيتها، ويكون هذا التفاوت أحياناً بحسب مستعمل اللغة ومراده منها، فالعبارة قد تكون صادقة، وقد تكون كاذبة، وقد يكون الكذب جهلاً، وقد يكون قصداً. والمتكلم يختار ألفاظ اللغة بصورة تعبر عن غرضه النبيل أو الخبيث، وقد يكون لهذه الألفاظ ظاهر صريح، أو باطن خفيّ، وقد تجد بعض الناس يؤوِّلُون ألفاظ اللغة فيحرفون الكلم عن مواضعه ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٩-٣٠٢

سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ ﴾ [النساء: ٤٦] وقصة الانسحاب "من الأراضي المحتلة" عام ١٩٦٧، أو الانسحاب "من أراض محتلة" معروفة لدى أبناء الجيل الذي ينتمي إليه كاتب هذه السطور. ولفظ الرجعية كان -في حقبة الخمسينات والستينات من القرن العشرين في البلاد العربية- وصفاً تكرَّس بُعْدُه السلبي بفعل جهود بعض السياسيين لمحاربة الاتجاهات المحافظة عموماً والإسلامية خصوصاً. ولفظ الإرهاب منذ مطلع هذا القرن الحادي والعشرين أصبح يطلق على كل من يعارض بعض السياسات الدولية أو المحلية، حتى لو كانت معارضتُه كلمةً تقال أو تكتب. وقد شرعت قوانين مقاومة الإرهاب في عدد من البلدان العربية لتطال أصحاب الكلمة، أو حتى الإشارة، التي يسهل على مطبقي القوانين تفسيرها بأنها مناهضة للنظام، أو تحريض على هذه المناهضة!

وإذا كانت اللغة أداة للتعبير، ووسيلة لإيصال فكرة معينة بين متكلم ومستمع، فإنها كذلك وسيلة لإحداث تأثير محدد لدى المستمع، ربما يقتصر التأثير في فكر ذلك المستمع، وقد ينتقل إلى التأثير في سلوكه، لذلك فليس من المهم أن تتطابق الأفكار المقصودة من ألفاظ اللغة مع الدلالات المباشرة لهذه الألفاظ فحسب، وإنما من المهم كذلك النظر في الأثر الذي تحدثه هذه الألفاظ لدى المتلقي. ومن هنا يهتم متخصصو الدعاية والإعلان والإعلاميون والسياسيون والدعاة، باختيار الألفاظ التي تتناسب مع التأثير المنشود الذي يرغب هؤلاء في إحداثه في نفس المستمع أو القارئ.

ومن المعروف أن الإنسان يستطيع التفكير والتعبير عما يفكر به دون استعمال اللغة الطبيعية، التي تستخدمها الجماعة البشرية في التعبير عن مضامين الفكر. فالرسامون يعبرون بالرسم والألوان عن الأفكار التي تدور في أذهانهم، والخريطة الجغرافية هي وصف بالأشكال والخطوط والألوان تعبر عن أنواع من الأشياء وحجومها وخصائصها من سهل وجبل ونهر وبحر، دون الحاجة

إلى النطق بالكلمات أو كتابتها. وتعبر الصورة في بعض الأحيان عن دلالات لا تصل إليها ألف كلمة. ومع وجود طرق مختلفة للتعبير عن الفكر، فإن النظام اللغوي يبقى أكثر الطرق قدرة على التعبير عن الفكر البشري؛ ذلك أن الفكر يتصف بدرجة عالية من التعقيد، يحتاج من أجلها إلى طريقة مكافئة له.

وتزداد خطورة العبث باللغة في هذه الأيام التي أصبحت فيها وسائل الإعلام التقليدية والحديثة متاحة في كل لحظة، وخلفها أنظمة ومؤسسات واتجاهات، ولكل منها أهدافها في الوصول إلى عقول الناس وقلوبهم، وتستخدم في ذلك أنواعاً متعددة من المؤثرات التي تصل في قدرتها إلى حد برمجة العقول وغسيل الأدمغة وتقليب القلوب! إن ذلك لا يعني -بطبيعة الحال- أن جميع الناس في أي مجتمع يتنازلون بسهولة عما ترسَّخ في قناعاتهم وأعرافهم لعمليات التأثير اللغوي في النفوس؛ إذ من المتوقع أن يكون كثير من الناس على درجة من الوعي بحيث يدركون مقاصد الخطاب اللغوي وأهدافَه، فيرفضون ويقاومون ما لا ينسجم مع قناعاتهم الراسخة.

سادساً: الكلام وحديث النفس

ومن موضوعات العلاقة بين الفكر واللغة، التمييز الذي قدمه علماء الكلام المسلمون، بين الكلام الحسِّي، والكلام النفسِّي. ومقولة الكلام النفسي أساساً جاءت من وصف القرآن الكريم بأنه كلام الله، ومن ثم تقرير التباين بين كلام الله وكلام البشر، فالله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾. فالذين يقولون بالكلام النفسي وهم الأشاعرة على وجه التحديد، يعنون به الكلام الذي يناسب الذات الإلهية المتعالية عن الحدوث والفناء، فهو كلام لا يتكيف بصوت أو هيئة، وإنَّما هو صفة قديمة غير حادثة. لكنَّ البحث في الكلام النفسي انتقل إلى الكلام البشري، فقالوا: إنَّ الكلام البشري موجود حسي يفيض عن موجود نفسي، وعالجوا عدداً من المسائل منها حقيقة الكلام النفسي وماهيته، والبحث في العلاقة بين الكلام الحسي والكلام النفسي،

والبحث في خصائص الكلام النفسي. ويناقش عماد الزبن مقولات ثلاثة من علماء العقليات المسلمين في موضوع الكلام النفسي مناقشة تفصيلة، وهؤلاء العلماء الثلاثة هم: عضد الدين الإيجي (ت٧٥٦هـ)، وسعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، والشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ).[١] ويتوصل الباحث إلى أنَّ هؤلاء العلماء الثلاثة قد تنبّهوا لمسألة: "نظام القواعد النفسية والعقلية الذي تتأسس عليه مباحث الكلام الحسي، وتُعد بحوثُهم تبصراً مبكراً في استراتيجيات عميقة لإنتاج الفكر الإنساني، تربط بين الموجود الكلامي الحسي وتفاعلات نفسية وعقلية عميقة، وتشي بما وصلت إليه أنظارهم من قدرة معرفية على تجاوز ظواهر اللغة، ومحاولة تلمس مصادر الموجود الكلامي في مساحات وراء الحس، ولا يبعد أن نعدّ هذه البصائر اللسانية مقدمة لافتراض وجود حقيقة نفسية psychological reality لأنظمة الكلام الإنساني وقوانين هذا الكلام...[٢]

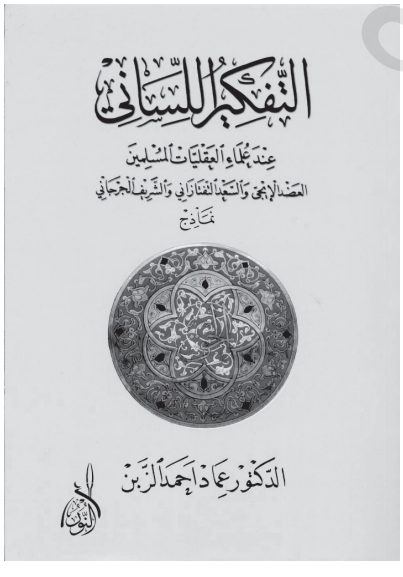

والكلام النفسي هذا له علاقة بالبيئة والمحيط الخارجي والظواهر التي تلاحظها الحواس، "فالأعيان الخارجية عندما تقع في دائرة ملاحظة النفس الإنسانية، تولد فيها الحاجة إلى التعبير، وهذا من شأنه الدفع إلى حصول التفاعلات الكلامية النفسية، التي تمثل فيض الكلام النفسي، الباعث بدوره على فيض الكلام الحسي، ومن هنا جاء ربط هؤلاء العلماء الخبر النفسي بالنسب الخارجية، وجعل

(١) الزبن، عماد أحمد. **التفكير اللساني عند علماء العقليات المسلمين**، عمان: دار النور المبين للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م، ص ٣٠٧-٣٢٥.

(٢) وقد تكون هذه البصائر شبيهة بما قال به تشومسكي عن الأساس الفطري والكليات اللغوية.

النسب الخارجية عيار صحة النسب الكلامية... ثم تأتي الظواهر الداخلية، وهذه عوامل مركزية أيضاً، والمقصود هنا خصوصية العلم والفكر، والدوافع الغريزية، والمقتضيات الجسدية والنفسية، فكل هذه البواعث تولّد الحَراك النفسي الكلامي الداخلي، وتدفع النفس إلى التعبير عن نداءاتها المتجددة."[1]

وبقطع النظر على الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة، وبين المتكلمين والسلفية، حول جواز القول بالكلام النفسي عن كلام الله سبحانه أو رفض القول بذلك، فإن الذي يعنينا في هذا السياق هو الكلام البشري. فثمة صورة للكلام المنطوق باللسان، وثمة حديث النفس الذي لا يُنطَق به، والذي يسميه بعضهم بالكلام النفسي، ويرفضه بعضهم الآخر مكتفين بتسمية ذلك "حديث النفس" وليس الكلام النفسي. وثمة جدل حول ما يصح إطلاق لفظ الكلام عليه، فهل القول كلام، أم غير كلام؟ ومع ذلك فإن حديث النفس واختلافه عن الكلام اللفظي أمران معروفان دون خلاف. فالإنسان يحدث نفسه بما لا يقوله، والله يعلم ما يظهر بالكلام وما يخفى في الصدر. ويستشهد القائلون بحديث النفس أو الكلام النفسي بالكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكلام العرب، من ذلك:

- من القرآن الكريم، قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النحل: ١٠٦].
- ومن الحديث حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ، فيما يروي عن ربه عزَّ وجلَّ قال: إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملْها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عشرَ حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

(١) الزبن، **التفكير اللساني عند علماء العقليات المسلمين**، مرجع سابق، ص ٣٢٤.

ومن همّ بسيئة فلم يعملْها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة."[1] وحديث أبي هريرة مرفوعاً، قال: (إِنَّ اللهَ تَجاوَزَ عَنْ أُمَّتي ما حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُها ما لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ.)[2]

- ومن كلام العرب قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وكنت قد زوَّرْتُ مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها... والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سَكَتَ."[3]
- ومن شعر محمد إقبال الذي ترجمه إلى العربية عبد الوهاب عزام بيت، في معنى خواطر النفس التي يُبين عنها اللسان وهو:

صعدت إلى شفتي خواطر مهجتي ليبين عنها منطقي ولساني

ومن أبرز من استوفى الكلام عن حديث النفس والكلام النفسي القاضي أبو بكر الباقلاني.[4]

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلم به. قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال ذلك صريح الإيمان."[5]

---

(١) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة الحديث رقم ٦٤٩١، ص ١٦١٤.

(٢) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأيمان والنذور باب إذا حنث ناسياً في الأيمان، رقم الحديث ٦٦٦٤، ص ١٦٥١، والحديث رقم ٦٤٩١، ص ١٦١٤

(٣) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الحدود/ باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، حديث (٦٨٣٠). ص ١٦٩٠.

(٤) الباقلاني، القاضي أبو بكر (ت ٤٠٣هـ). **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ١٠١-١٠٧.

(٥) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، حديث رقم ٢٠٩، ج١، ص ١١٩.

سابعاً: الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية وأثرهما في الفكر والثقافة والهوية

تفاوتت آراء الباحثين العرب حول دلالة مصطلح الثنائية اللغوية (Bilingualism) ومصطلح الازدواجية اللغوية (Diglossia) نظراً لاعتمادهم على ترجمة المصطلح الأجنبي للمفهومين، فقد لوحظ أن اللغات الأوروبية التي يعود إليها الباحثون العرب تستخدم المصطلح بطريقة غير منتظمة التحديد.[1] ويبدو أن الاتجاه الأقرب إلى الدلالة المباشرة هي أنّ الازدواجية اللغوية تعني وجود مستويين لغويين للغة الواحدة؛ مثلاً اللغة العربية الفصحى والعامية. وهي صفة للمجتمع بصورة عامة، تترسخ عبر فترة من الزمن لا تقل عن ثلاثة أجيال، أما الثنائية اللغوية فهي تعني وجود لغتين مختلفتين، لغة وطنية ولغة أخرى، وقد تكون هذه اللغة الأخرى، لغة أجنبية تستعمل من قبل أفراد عند الحاجة أو في مجالات ضيقة، أو لغة ثانية تستعمل على نطاق واسع في المجتمع، أو ممن اكتسبوا الثنائية اللغوية عن طريق النشأة في بيئة ثنائية اللغة أو عن طريق التعليم.[2] فاللغة الأجنبية ربما تصبح موازية للغة القومية، وربما يتداخل استعمال اللغتين بصورة يعجز كثير من أفراد المجتمع عن التعبير عن مراده من الكلام بلغة واحدة، لا سيما إذا غلب استعمال اللكنة الأجنبية بصورة تؤثر على بناء المفاهيم والصور الذهنية بهذه اللغة، وليس باللغة الأم.

---

(1) Chin, Ng Bee and Wigglesworth, Gillian. *Bilingualism*, New York, Rutledge Applied Linguistic. 2007, pp 5–8. See also:

- Myers–Scotton, Carol. Multiple *Voices: An Introduction to Bilingualism*, New York: Blackwell Publishing Ltd, 2006, pp Chapter 2 on Dialect pp. 16–34, Chapter 3 on Bilingualism pp. 35–66.

- محمود، إبراهيم كايد. العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية. **المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (العلوم الإنسانية والإدارية)**، المجلد الثالث، العدد الأول اذو الحجة ١٤٢٣ /مارس ٢٠٠٢م)، ص ٥٣–١٠٨.

(٢) الموسى، نهاد. ما كان وما هو كائن وما ينبغي أن يكون. ندوة الازدواجية في اللغة العربية، عمان: الجامعة الأردنية، ١٩٨٨م، ص ٨٤.

وثمة دراسات كثيرة حول الازدواجية اللغوية، والثنائية اللغوية يعرفها أهل الاختصاص في الدراسات النفسية واللغوية والتربوية. وقد تنوعت هذه الدراسات تنوعاً كبيراً في مرجعياتها الفلسفية، والاجتماعية والسياسية، وفي مناهجها النظرية والميدانية المسحية أو التجريبية، وفي نتائجها التي تكشف عن آثار سلبية أو إيجابية على تعلم الفرد وتشكيل شخصية وانتمائه، وعلى المجتمع وتماسكه واستقرار هويته... إلخ.

والذي يهمنا في هذا المقام هو أثر هاتين الظاهرتين على عملية التفكير ومستوى الدقة والوضوح في التعبير عن الأفكار بصورة تيسر فهمها وتمثلها، ففي مجال الازدواجية اللغوية نجد دراسات جادة تؤكد أن اللهجة "العامية قاصرة عن أن تفي بالتعبير عن الأمور الثقافية والفكرية والفلسفية، وعلى المتكلم في هذه المواضيع أن يعود إلى الفصحى إذا أراد التعبير عما يقول بشيء من الدقة."[1]

وعلى كل حال فإن المسافة بين العامية والفصحى تضيق تدريجياً بانتشار التعليم وزيادة الوعي والثقافة بها. ويسهم القرار السياسي في حلِّ الجزء الأكبر من المشكلات التي تعزى إلى وجود اللهجة أو اللهجات العامية. ولنتذكر أن قبائل العرب كانت تتكلم بلهجات متعددة، فلما أُنزل القرآنُ الكريم وكُتب بلهجة قريش، تكلَّم بها سائرُ العرب، ولا يزالون. ولنتذكر كذلك أنَّ اللغة الفرنسية الحالية المستعملة في التعليم والإعلام والتعامل الثقافي قد بدأ اعتمادها ثم سادت بقرار ثوري، وأصبحت تعبيراً عن الثقافة الفرنسية منذ الثورة الفرنسية؛ إذ جرى قرار اعتماد اللهجة الباريسية من بين اللهجات الأخرى.

وقد لا تكون الازدواجية اللغوية على نفس القدر من الخطورة بالمقارنة بالثنائية اللغوية، فقد أظهرت نتائج كثير من البحوث التي جرت في بلدان

(١) الزغول، محمد راجي. الازدواجية في اللغة العربية، ورقة قدمت إلى ندوة الازدواجية اللغوية، التي نظمها مجمع اللغة العربية الأردني والجامعة الأردنية، عمّان، ١٩٨٨.

كثيرة وجود مشكلات متعددة لغوية ونفسية واجتماعية، نتيجة التداخل في النظام اللغوي للغتين. ومن الموضوعات الذي حظيت بكثير من المعالجة ظاهرة ما يسمى الإنهاك اللغوي (attrition) الناتجة عن ثنائية اللغة تتحدث عنها الكتب والدوريات العلمية المتخصصة، لا سيما في مجال اللسانيات التطبيقية (Applied Linguistics).[1]

يضاف إلى ذلك أن البحوث اللغوية والتربوية أوضحت أن التعليم بلغة الأم يرسخ ما يكتسبه المتعلمون بها وييسر عليهم اكتسابها، وأن التحصيل بلغة ثانية يؤدي إلى اضطرابات في تحصيل المعرفة أولاً وفي استخدامها ثانياً. وتشير تقارير التنمية البشرية لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي للدول التي تحتل موقع الصدارة وللدول المرشحة للصدارة أن استعمال اللغة القومية في التعليم، ومن ثم في مختلف مناشط المجتمع، يساعد في دفع المجتمع إلى الأمام، وهذا لا يعني عدم تعليم اللغة الأجنبية في صورة مادة من مواد المنهاج الدراسي، لما في ذلك من توسيع دائرة الاستفادة من مصادر المعرفة والثقافة المعاصرة.[٢]

وعلى الصعيد الاجتماعي العام تعد اللغة في أي مجتمع العنصر الأكثر أهمية من عناصر الثقافة في ذلك المجتمع، وبالنسبة لمجتمعاتنا العربية، ترتبط اللغة العربية بالإسلام ارتباطاً وثيقاً، ليس فقط في تشكيل الثقافة العربية الإسلامية في المجتمعات العربية، وإنما دَخَلَ الإسلام واللسان العربي الذي جاء به الإسلام في ثقافة الشعوب المسلمة غير العربية. وفي بيان علاقة اللغة بالثقافة المجتمعية يصك الذوادي مصطلح "الرموز الثقافية الإنسانية" التي يَعُدُّها "العناصر الحاسمة

(1) Chin, Ng Bee and Wigglesworth, Billian. *Biligualism*, pp 70–78 see also:
– Bylund, Emanuel. Maturational constraints and first language attrition. *Language Learning*; 59(3), September, 2009, 687–715.

(٢) عبد العزيز محمد حسن، اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسسات التعليمية في جمهورية مصر العربية: الواقع والتحديات واستشراف المستقبل. الموسم الثقافي الثالث والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠٠٥، عمان: منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠٠٥م، ص ١٢٧–١٨٨.

التي تميّز الإنسان" عن جميع الكائنات الأخرى، ويقرر وجود: "اتفاق بين علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الذين اهتموا أكثر من غيرهم بدراسة عالَم الرموز الثقافية عند الإنسان، بأنّ اللغة في شكليها المنطوق والمكتوب هي أهم تلك الرموز الثقافية جميعاً، والتي بدونها لا يمكن الحديث لا عن بقية الرموز الثقافية الأخرى، ولا على سيادة الإنسان على الأرض، ولا في الفضاء. وإذا كانت اللغة هي العمود الفقري بالنسبة إلى ظاهرة عالم الرموز الثقافية فإنها بحسب رؤيتنا تصبح أكثر الرموز الثقافية ترشحاً لا إلى حملها البصمات الميتافيزيقية في كينونتها فقط، وإنما أيضاً تصبح المصدر الرئيس في تمكين الرموز الثقافية الأخرى من التأثر بالومضات الماورائية."[1]

ومن هنا يَعُدُّ الذوادي التبعية الثقافية أخطر من التبعية السياسية والاقتصادية وغيرها من التبعيات؛ لأن الغزو الثقافي والاستلاب الثقافي والامبريالية الثقافية وأمثالها من المصطلحات هي في الحقيقة تعبيرات عن ظاهرة تفشي رموز ثقافة الآخر. "فالتبعية الثقافية للآخر تعني تبعية الروح الثقافية الرموزية للفرد والجماعة لهذا الآخر، الذي قد يكون هو العدو. وتمثل تبعية الروح الثقافية الرموزية للآخر المس بأهم عناصر تكوين هوية الفرد والمجموعة... والانتشار الواسع لاستعمال اللغة الإنجليزية (الأمريكية) أو الفرنسية في مجتمعات إفريقيا وآسيا، بدل استعمال اللغات الوطنية والمحلية لهذه الشعوب، لا يمثل فقط تفقيراً لتلك اللغات واللهجات... وإنما ينطوي أيضاً على أن الجهاد من أجل الفوز بالاستقلال اللغوي والثقافي سوف لن يكون أمراً هيناً، وذلك يعني في نهاية الأمر أن عمر التبعية اللغوية الثقافية، متى تجذرت الرموز الثقافية للآخر بالمجتمع التابع ليس بقصير."[2]

ولكن الازدواجية اللغوية تذكرنا بما هو أخطر من ذلك بكثير؛ إنَّها

---

(١) الذوادي، محمود. **الثقافة بين تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظور العلوم الاجتماعية**. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٦م، ص ١١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٥-١٣٦.

الازدواجية الفكرية! فالمواطن في مجتمعنا المعاصر يعيش في محيط من الثقافة تسهم في تشكيلها مؤسسات المجتمع المختلفة لا سيما أجهزة الإعلام والتواصل المعاصر. وهي ثقافة تسهم إسهاماً عميقاً في طريقة تفكير الإنسان. ومع أنَّ المواطن في مجتمعاتنا ينشأ ضمن هوية وانتماء ديني تقليدي يتحدث عن المثال الذي ينبغي التوجه إلى تحقيقه، فإن الثقافة المعاصرة تكرس واقعاً بعيداً عن هذا المثال، تغلب عليه سطوة المادة والمال والسياسة.

وفي هذا المجال يسهب مالك بن نبي في الحديث عن الآثار المدمرة لازدواجية اللغة وذلك في كتابه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، فيتحدث عن خيانة الأفكار، وانتقام الأفكار، وموت الأفكار. فعندما تموت الأفكار تصبح العقول فارغة، وتستسلم اللغة للعجز، ويصبح المجتمع في حالة طفولية، يعبر عن غياب الأفكار بطرق طفولية بالحركة أو الصوت، "فحين لا توجد الأفكار لا توجد الكلمات... (و) ما نفهمه جيداً نعبر عنه بوضوح، وتأتي الكلمات لتقوله بسهوله."[1]

ثم يفرد مالك بن نَبِي فصلاً بعنوان الأفكار وازدواجية اللغة، وهو يتحدث عن ازدواجية اللغة بمعنى وجود لغة أجنبية يستعملها المجتمع إلى جانب اللغة الوطنية، ويعدّها غرساً من غراس العصر الاستعماري؛ إذ غرس المستعمر "فيما غرس من الظواهر المتصلة بالهياكل الاقتصادية والاجتماعية والإدارية في البلاد المستعمرة ظاهرةً خاصة، هي ازدواجية اللغة، التي تتعلق ببناه الثقافية والعقلية، وبأفكاره... إنَّ النتائج الاجتماعية ليست أبداً واحدة، ففي حالةٍ تصبح ازدواجية اللغة مفجِّراً يعيد الحركة للعالم الثقافي... (وفي بلادٍ أخرى) فإنَّ ازدواجية اللغة ليست فقط مجرد مفجِّر، بل هي أكثر من ذلك ديناميت قُذِفَ في العالم الثقافي، وإذا كان لم

(١) ابن نبي، مالك. **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، تقديم: عمر مسقاوي، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٨م. ص ٦٦.

ينسف كل شيء فإن انفجاره أحدث أغرب الانشقاقات. "ففي الجزائر مثلاً شمل الانشقاق الذي أحدثته ازدواجية اللغة القمة والقاعدة، وجعل منهما ليس "نخبتين، وإنما مجتمعين متراكبين، أحدهما يمثل البلاد في وجهها التقليدي التاريخي، والثاني يريد صنع تاريخ ابتداءً من الصفر. فالأفكار المطبوعة للأولين والأفكار الموضوعة للآخرين، لا تستطيع التعايش في عالم ثقافي واحد. فالمجتمعان يتحدثان بلغتين مختلفتين." ويعطي المؤلف أمثلة عديدة على آثار هذه الازدواجية اللغوية في تشويه المصطلحات، وتغيير دلالاتها، وتعطيل القدرات الإبداعية، ويختم الفصل بالقول: "فأقل ما يمكن قوله في هذا المقام: هو أنَّ ازدواج اللغة يمكن أن يتولَّد عنه نتائج تتعارض كلياً مع الثقافة الوطنية."[1]

ونستدرك مرة أخرى بالقول إننا لا نعنى بذلك نبذ تعلُّم اللغة الأجنبية، أو اللغات الأجنبية؛ فتعلمها أمر مهم ومفيد في توسيع ثقافة الإنسان المفكر، أو الذي يتحدث بالفكر، ولصفي الدين الحلّي بيتان جميلان:

بقدرِ لغاتِ المرءِ يكثرُ نفعهُ فتلكَ لهُ عندَ الملمَّاتِ أعْوانُ

تَهافَتْ على حِفْظِ اللّغاتِ مُجاهداً فكلُّ لِسانٍ في الحَقيقَةِ إنْسانُ

ومع ذلك فإنّ كثرة استخدام المصطلح الأجنبي في الحديث، لا سيما الشفاهي ليس أمراً محموداً، ويُعدُّ عجزُ الشخص عن التعبير بالعربية عن الفكرة والتجاؤه إلى المصطلح الأجنبي نقصاً غير لائق في حقِّه.

خاتمة:

عالجنا في هذا الفصل العلاقة بين الفكر واللغة، من خلال سبعة عناوين فرعية، هي: العلاقة في بعدها التاريخي، والبيان موضوعاً لهذه العلاقة، والنظريات التفسيرية لهذه العلاقة والنظر في العلاقة التبادلية بينهما، والفكر

(١) المرجع السابق، ص ١٣٧-١٤٤

بين اللغة المنطوقة والعبث الفكري واللغوي، وحديث النفس، والازدواجية والثنائية اللغوية. وقد تبين لنا أن كل موضوع من هذه الموضوعات فيه مشاهدات وصفية، وخبرات علمية، ونظريات تفسيرية، ووجهات نظر مختلفة. كما تبين لنا أن موضوع العلاقة بين الفكر واللغة كان ولا يزال موضوع بحث ونظر منذ القديم، وله في التراث الإسلامي نصيب ملموس، وأن الإنسان يحدث نفسه بالأفكار قبل أن يحدث بها غيره، ورجحنا القول بالعلاقة التبادلية الوثيقة التي تظهر في صور التأثير والتأثر بين الفكر واللغة، فإذا أردنا أن نحقق البناء الفكري لدى الفرد أو المجتمع، فلا بد من النظر في المهمة التي تؤديها اللغة في هذا البناء. كذلك فإن درجة وضوح المفاهيم وتبلور الأفكار، يُغْنِي اللغة ويُرَقِّي مهاراتها. وأخيراً تبين لنا أن لموضوع الازدواجية اللغوية جوانب متعددة يحيل بعضها على الازدواجية الفكرية، وأن للموضوع أبعاداً نفسية واجتماعية تستدعي الاهتمام المعالجة.

لكن من الواضح أنَّ مادة هذا الفصل لم تستوف الحديث عن العلاقة بين الفكر واللغة، فهو موضوع واسع، فيه من الكتب والمراجع والدراسات شيء كثير، ولدراسة الموضوع مداخل متعددة، ويمكن لكل مدخل approach أن يقدم الموضوع بطريقة مختلفة عن المدخل الآخر. فثمة علاقة مهمة بين الفكر واللغة من الناحية الفلسفية، أو التاريخية، أو النفسية، أو الاجتماعية، أو السياسية... إلخ. وما أثبتناه هنا هو نبذ قصيرة عن العناوين السبعة المشار إليها.